سيميائية العنوان واستراتيجية المفارقة

في قصيدة المهرولون للشاعر نزار قباني

الأستاذ : تاوريريت بشير

قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر بسكرة

1- سيميائية العنوان :

لقد حظي العنوان في أطروحات السيميائيين باهتمام خاص، و هو نص و باقي المقاطع ما هي إلا تفريعات نصية تتبع من العنوان الأم، و العلاقة بين هذا الدفق التفريعي و العنوان بوصفه متخيلا شعريا أو سرديا هي ليست علاقة اعتباطية، إنها علاقة طبيعية منطقية، علاقة انتماء دلائلي، لأن الدلالة التي تثيرها الوحدات و المقاطع أصبحت محكوما عليها بفلسفة الانتماء إلى الحقل الدلالي الرئيس الذي يشغله الفضاء الدرامو دلالي للعنوان، و المساحة الدلائلية للعنوان هي أكبر من الحيز الدلائلي للوحدات و المقاطع.و العنوان أيضا هو : « تجميع مكثف لدلالات النص إن البؤرة قد يستقطبها العنوان ثم يتم ترددها في مقاطع النص، فتأتي تلك المقاطع تمطيطا للعنوان و تقليبا له في صورة مختلفة فالكلمة المحور و التي هي العنوان تتحول إلى الجملة المنطلق لتناسب النص عبر تشكلات و تقابلات عدة ليمر على الجملة الرابطة و تتلاقى هذه الآليات جميعها في الجملة الهدف...» [1].

القصيدة التي بين أيدينا هي قصيدة حداثية ترفض الشكل الدائري الذي يلتف حول معنى واحد يشكل المعنى النواة، بل تعتبر الدلالات المتكاثفة الطاغية في أرجاء القصيدة تشظيا للعنوان، و لفهمها لا بد من تفكيك شفرات العنوان، لتجاوز الغموض شيئا فشيئا من خلال تتبع تناسل الدلالات عبر جسد النص.

إن لفظة المهرولون لا تعدو أن تكون إشارة ضوئية و مؤشرا دالا على كل ما ستحتويه هذه اللفظة من تشجير دلالي، و هي مشتقة من الفعل (هرول) على وزن (فعلل) ففي وزن الفعل تكرار لحرف اللام للمبالغة في الشيء، و الهرولة في لسان العرب: « بين العدو و المشي، و قيل الهرولة بعد العنق، و قيل الهرولة الإسراع.

و يقول الجوهري : الهرولة ضرب من العدو بين المشي و العدو، و في الحديث القدسي : π من أتاني يمشي أتيته هرولة ι، (...) و قيل الهرولة فوق المشي و دون الخبب و الخبب دون العدو » [2] .

إذا الدلالة المعجمية للفظة الهرولة هي السير بسرعة، يختطف نزار قباني هذه اللفظة فيفرغها من تلك المعجمية، ليشحنها بدلالات جديدة تحولت فيها لفظة المهرولون إلى آدم عمل جديد على تسمية الرأي العربي تسميات جديدة، حيث عمل على أخذ هذه الكلمة من مخزون اللغة فأطلق سراحها، فإذا بها هي كلمة حرة طليقة سابحة في فضاء دلالي مكثف. و المهرولون صفة للعرب، و قد جاءت اسم فاعل بصيغة الجمع و هي مبتدأ مرفوع لخبر محذوف تقديره (موجدون)، جاءت معرفة بالألف و اللام.

لقد تجاوز نزار قباني في هذا العنوان الشعري تلك الدلالة الهامشية التي تدل عليها الهرولة (السير بسرعة) فأصبحت اللفظة تدل على اللاثبات و اللاستقرار، و الاضطراب واللانسجام و الحركة و التخاذل، هذه الدلالات الفرعية تتموقع كلها تحت مظلة الدلالة الرئيسية التي يشغلها ملفوظ الهرولة، و المتأمل في الملفوظات النصية الواردة على مستوى المنجز النصي أو المقاطعة فإنه يلحظ انتماءها إلى الشجرة الدلالية أو الحقل الرئيس الذي يثيره العنوان مثل الأفعال التالية: دخلنا، وقفنا، لهثنا، ركضنا، تسابقنا... إلخ.فهي كلها تدل على الاضطراب و اللاستقرار، و هي صفات اتسم بها الرأي العربي في ظل هذه التراكمات السياسية الزائفة و الحائرة.

إن مشوار المهرول يتسم بالخيبة و الشك و الرفض، إنه في بحث و قلق مستمرين و هي حالة نفسية دفعت بالعرب نحو المجهول دون تحديد الوجهة التي هم إليها قاصدون.

لقد انطلقت القصيدة تفجر معانيها من هوس داخلي و احتفاء بالفرد العربي و انكساراته الروحية و السياسية حيث انكسرت الأحلام و شهدت الساحة خمول النظام السياسي. إنها مسيرة إنسان ممزق بين ماض منير و عالم قديم محاط بالذكريات و الشجن، و العالم الثاني مستقبل محاط بالهزيمة و الانكسار، و كأن الشاعر يجعل من الرموز الواردة أسلوبا لاستثارة الذكريات و البكاء، إنها محاولة للتشبث بالأرض و تعبير عن تلك النفسية الممزقة المنهارة.

و صورة أولئك العرب بإجماع هي صورة إنسان نراه مجهدا، و خائفا من الرحلة وما ستسفر عنه من هزائم و انكسارات جديدة. فبالفعل كانت اتفاقية أوسلو رحلة هزيمة جديدة قد خططت بعناية و رتبت بذكاء، و وقف الإنسان العربي خارج حلبة الصراع يتفرج على مصيره الذي تصوغه الأنظمة على هواها.

فجاء العنوان يعكس العنوان تلك النار المصطبغة بعذاب هذا الإنسان في فرديته المهددة و طريقه المؤدي إلى المجهول، و هو يهرول تناديه الحرية و تصوغ حماسه الثروة.

فالعنوان يجسد انفصال الإنسان العربي عن ذاته، هذا الإنسان المملوء بالشك و الحيرة تقتاده الريبة و ضياع النفس، إنه خوف يتنامى كلما ازدادت الهرولة، فلا تعرف تلك النفس الطمأنينة و الهدوء، باستثناء تلك النبرة اليائسة التي تجسد عذاب السريرة في هدوء واجم :

كم حلمنا بسلام أخضر
و هلال أبيض
و ببحر أزرق
و قلوع مرسلة.. (3)

فهذه النبرة الحزينة اليائسة نستشف منها رغبة في الحياة الكريمة من خلال تلك الألوان التي ترمز في مجموعها إلى السلام و الطمأنينة و التعلق بالحياة في ظل الكرامة و الحرية.. إنها صورة مشحونة بالواقع تستدعي صورة الخضوع و الهزيمة فلا سلام أخضر و لا هلال أبيض، كلها أحلام و هذيان من شدة ارتفاع حمي الهرولة، هكذا هي نفسية المهرولون تتابع تفاصيل صدماتها عبر مقاطع القصيدة، فتحدث الصدمة الكبرى و ربما يتوقف العرب عن هرولتهم و كأن الحكم قد أشار : الرجاء نقطة نظام. فيسأل العرب :

من ترى يسألهم
عن سلام الجبناء
لا سلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم

عن سلام البيع بالتقسيط [4]

إن صورة العرب و هم يسألون تدفعنا إلى تخيل حالتهم فما عادت مفاوضات السلام تجدي مع إسرائيل إذ وجد العرب أنفسهم في مزبلة، لأن إسرائيل مذ وجدت تخون العهود و ترمي بالاتفاقيات في سلة المهملات و العرب يحفظون الوعود و يحلمون بالسلام مع إسرائيل، لكنهم مخطئون فإسرائيل لها طريقتها في اغتيال الأسئلة و السائلين :

اسكتوا الشارع..
و اغتالوا جميع الأسئلة..
و جميع السائلين..
و تزوجنا بلا حب..
من الأنثى التي ذات يوم، أكلت
أولادنا
مضغت أكبادنا.. [5]

هكذا يكون الزواج بلا حب حدا فاصلا بين مواقف متعددة، فإسرائيل تتكلم بلغة الدم والسلاح والعرب يأملون السلام ويحلمون باسترجاع أرضهم. وفلسطين تغتصب ويقام عرس اتفاقية أوسلو بمراسيم أمريكية ويحضره غرباء عن فلسطين أما العرب ربما توقفوا عن هرولتهم ليشاهدوا فلسطين تضيع من أيديهم للمرة الخمسين علي يد أمريكا و بإصرار من إسرائيل.

لقد قام العنوان بالمهمة التي أسندت إليه على أكمل وجه إذ كان يحمل قلقا دلاليا واضحا عبر تشظيه إلى دلالات فرعية لما تحتويه من فجوات تكتظ بالغموض، فالعنوان لا يسعى إلى تحقيق دلالة يقينية مباشرة، بل ليضع المتلقي عبر فوضى الدوال و مراوغة المدلولات في مساحة من اللغة تقوم على أصوات متعددة و نبرات متناقضة تسودها الضبابية، توحي له بتشتت فكر المهرولين و حيرتهم و قلقهم.

2- ملامح المفارقة في قصيدة المهرولون :

إن قصيدة المهرولون فضاء مفتوح على مفارقات عديدة تتعارض فيها الصورة و تتضارب فيها الدلالات لتكسر جدار اللغة و تحاول جعل القصيدة النزارية «زلزال يزلزل الشاعر » [6] إنها تبحث عن تفاعلات جديدة كانت عناصرها تتكرر.

إذ إن اللغة النزارية «ليست معصومة من الإعادة و التكرار لأنها ككل اللغات تموج و تهدأ و تقف و تتحرك و تصحو و تمطر و يتساقط ورقها ثم ينبت لها ورق جديد» [7] هذه الغرابة اللغوية هي التي جسدت المفارقة النزارية و قبل تتبع ملامح هذه المفارقة و تأثيرها في السياق الشعري نحاول التعريف بها.

عرفت المفارقة قديما منذ عهد أفلاطون باسم (أيرونيئيا) و تناولتها الأجيال باستمرار باصطلاحات و معان مختلفة و يرى (أوكست فليهم) أن المفارقة «وظيفة مجانية أخلاقية تقليصية» [8] لأنها تنطلق من السخرية و التهكم و المغايرة و تنظر إلى الأشياء بمنظار خاص.

أ/ المفارقة عنوانا: قدم نزار قباني عنوانه في شكل قضية مصغرة يرمي بها إلى مفارقة السخرية تطالعنا بصورة هذا الشعب الذي يحاول الاستفاقة لكنه ميت لا يستفيق. والهرولة وعاء يتسع لكل صفات التوتر والقلق والحيرة والشقاء فهي مثقلة بمعاني انعدام التوازن. وربما كانت المفارقة ترمي إلى إبراز صورة الشعب العربي الذي يحاول الاستفاقة في حين هو مثقل بكل معاني الانهزام والتوتر والانهيار...

و تنمو المفارقة في القصيدة مزهرة أشكالا عدة فتعطي لنا صورا مختلفة لعل أهمها:

1. مفارقة الأضداد: إذ يقوم التضاد بين الوطن و السراب في كون الأول مساحة أرضية معينة بينما تنعدم المساحة في حقل الشراب، و دلالة الوطن ترمي إلى الوجود و المكان في حين يمثل السراب دلالة اللاوجود واللامكان.

فالمفارقة تتجلى في التضاد الدلالي بين الاسمين، تتجسد هذه المفارقة في السطر التالي:

ما وجدنا وطنا نسكنه إلا السراب

و ثمة صورة أخرى لهذه المفارقة في قصيدة نزار في قوله :

و اغتالوا جميع الأسئلة

لتقع المفارقة بين عنصري الاغتيال والأسئلة، حيث يمثل الأول الموت واللاوجود بينما تمثل الأسئلة الحياة و البحث عن الحقيقة. وهنا تدل المفارقة على قتل الحياة و محاولة إسكات الضمير الإنساني.

2. مفارقة السخرية : يتكرر هذا النوع كثيرا لدى الشاعر ليبني موقفا يناقض ما ينتظر فعله تماما وتتمثل في قول الشاعر :

سقطت آخر جدران الحياء
و فرحنا..
و رقصنا..
و تباركنا بتوقيع سلام الجبناء
. . . .
سقطت للمرة الخمسين عذريتنا

إذ يتحول الوطن إلى علبة سردين عندما يحاصر و يسجن فيه الشعب، فلا يبقى مكان للحرية المرغوب فيها.

دون أن نهتز أو نصرخ..
أو يرعبنا مرأى الدماء..

لترتسم المفارقة في ردود الفعل المغايرة للتوقع، فالسقوط يتلوه فرح و رقص. و الاغتصاب يتبعه الصمت و الركض الذي يكلل بالانكسار والخسارة. وهكذا أراد الشاعر أن يرسم لوحته عن اللامبالاة العربية التي تصدق الوعود الكاذبة.

و يقدم لنا النص الصورة أخرى عن المفارقة في قول الشاعر :

و تزوجنا بلا حب
من الأنثى التي ذات يوم أكلت
أولادنا
مضغت أكبادنا
و أخذناها إلى شهر العسل
و سكرنا.. و رقصنا..
و استعدنا كل ما نحفظ من شعر
الغزل.. (9)

إذ تدعونا أفعال الزواج و قضاء شهر العسل واستعادة شعر الغزل إلى دلالات الطمأنينة والارتياح غير أن الصورة تتحول إلى فاجعة زواجنا من المرأة التي أكلت

أولادنا ومضغت أكبادنا. وتأتي المفارقة لإبراز شخص هذه المرأة التي تمثل الحكم الصهيوني المتطلع إلى إسكات الفلسطينيين و نسف ذاكرتهم.

3. مفارقة الإنكار : وهي «منحى يقتضي السخرية لكنه يتوسل بالسؤال لإظهار السخرية والإنكار لما يتحقق » [10] و من أمثلتها في القصيدة :

من ترى يسألهم
من سلام الجبناء
لا سلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم
عن سلام البيع بالتقسيط
و التأجير بالتقسيط
و الصفقات..
و التجار.. و المستثمرين » [11]

إذ يرتبط السلام دوما بالجبن و الموت و البيع بالتقسيط و الصفقات و التأجير. و هو الموقف الذي تنطلق منه المفارقة إذ يمثل السلام، الحياة الآمنة، والهدوء والاستقرار بينما تقلبه المفارقة إلى حيرة و نار للقلق تؤججها الوعود الكاذبة و القرارات التي لا تخدم القضية :

فلسطين بينهم كمزاد
كل شار يزيد متى شاء [12]

4. مفارقة التحول: وتظهر هذه المفارقة من خلال تغير الدلالة «كأن تكون الدلالة إيجابية وتتحول إلى سلبية » [13] هي في قول نزار :

أندلس واحدة نملكها
سرقوا الأبواب،
و الحيطان،
و الزوجات و الأولاد
و الزيتون و الزيت » [14]

إذ تتحول الملكية في المقطع التالي إلى اللاملكية، حيث تسرق الزوجات والأولاد ويغيب الاستقرار وتسرق رموز الإسلام و تذهب كل الآمال والأحلام أدراج الرياح.

و تبدو مفارقة التحول في قول نزار:

بعد هذا الغزل السري في أوسلو

خرجنا عاقرين

إذ يأتي الغزل عاقرا و تتحول الهبة المتمثلة في الوطن إلى حبة قمح أو حبوب.

فتجلس الأمة على الأرض الخراب. فالقصة تبدأ و تنتهي بالعقم، إنها المحدثات التي تجعل العرب يقفون دون ردة فعل.

5. مفارقة الأدوار: إذ تتخذ صاحب الموقف الطبيعي موقفا محايدا لموقفه الذي اقترن به في الذاكرة، أين تنتهي مهمة صاحب الموقف في الذهن، لتبرز مهمة أخرى مغايرة وترد هذه الصورة من المفارقة في قول الشاعر :

سقطت إشبيلية

فلا من بلد نحضنه

سقطت إنطاكية

. . .

سقطت مريم في أيدي الميليشيات »[15]

فكل من أنطاكية و إشبيلية، وعمورية، ومريم تسقط بعدما كانت رموزا حية ارتبطت بالشموخ و الخلود و الثبات، وانقلب دورها إلى تمثيل الهزيمة.

6. مفـــــارقة المفاجـــأة: «تقوم هذه المفارقة على مخالفة ما يتوقعه المرء في الموقف الذي يمر به»[16] فيأتي الموقف مفاجئا لما يتوقعه القارئ، و تتمثل هذه المفارقة في قول نزار:

عندما يبقى ضمير الشعب حيا

كفتيل القنبلة

لن تساوي كل توقيعات أوسلو

خردلة

فالشاعر يفاجئنا بنار الثورة بعد السلام الناجح و الجو الهادئ فتنتهي كل هذه اللحظات لتستحيل كل المعالم السابقة إلى الذل و الانكسار.

هوامـــــــش الدراســـــــــــة

(1) عبد الجليل منقور، المقاربة السيميائية للنص الأدبي، أدوات و نماذج محاضرات الملتقى الوطني الأول (السيميائية و النص الأدبي)، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2001، ص 61

(2) ابن منظور: لسان العرب، ج4، دار صادر، بيروت، ط3، 1994، مادة هــرول، ص 696.

(3) نوال مصطفي: نزار.. و قصائد ممنوعة، مركز الراية للنشر و الإعلام، 1998، ص 94.

(4) المصدر نفسه، ص 94.

(5) المصدر نفسه، ص 95.

(6) مفيد فوزي: نزاروأنا.. أطول قصيدة اعتراف، الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة، ط1، 1998، ص 15.

(7) المرجع نفسه، ص 138.

(8) سامح الرواشدة ــ فضاءات الشعرية، المؤتمر القومي للنشر، ط 1، 1999، ص 80.

(9) نوال مصطفى: نزار.. و قصائد ممنوعة، ص 93.

(10) سامح الرواشدة: فضاءات الشعرية، ص 20

(11) نوال مصطفى: نزار.. و قصائد ممنوعة، ص 94،95.

(12) نزار قباني: الأعمال السياسية الكاملة، ج3، منشورات نزار قبــاني – بيــروت–ط2، 1982،ص 139.

(13) سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص 22.

(14) نوال مصطفى: نزار.. و قصائد ممنوعة، ص 92.

(15) المصدر نفسه، ص 91.

(16) سامح الرواشدة، فضاءات الشعرية، ص 28.